الفصل الأول

دور العرب قبل الإسلام وبعده
في نشر اللغة العربية

obeikandl.com

obeikandl.com

العرب قبل الإسلام

ترى أكثر الدراسات التاريخية أن أصل العرب يعود في أقدم عصوره إلى الجزيرة العربية حيث انطلق منها إلى العراق والشام ومصر عدة هجرات كونت على مدى التاريخ دولاً لها حضارتها وثقافتها وتشريعاتها.

واستناداً إلى هذا القول فإنهم يطلقون على شعب المنطقة الشعب السامي الذي تفرع عنه الأشوريون والكنعانيون والآراميون وغيرهم.

ولكن صفة العربية أخذت تترسخ بعد هذا الزمن. وقد قسم العلماءُ العربَ إلى قسمين عرب بائدة وعرب باقية، ويسمون البائدة بالعرب العاربة، ويقسمون الباقية إلى قسمين، يسمون القسم الأول بالعرب المستعربة لأنهم ليسوا بصرحاء في العروبة بل هم استعربوا بانتقال الصفات العربية إليهم ممن قبلهم، ويسمون القسم الثاني بالعرب التابعة للعرب وهم قضاعة وقحطان وعدنان ومنه ربيعة ومضر.

وبعضهم يقسمون العرب إلى بائدة وعاربة ومستعربة ويريدون بالبائدة القبائل الهالكة، والعاربة عرب اليمن من ولد قحطان، والمستعربة أولاد إسماعيل عليه السلام، لكن أخبار العرب لم يُشرْ إليها إلا منازل هؤلاء العرب التي تقع شمالي بلاد اليمن في تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك شمالاً إلى مشارف الشام والعراق.

وأشهر من ينسب إليه العرب الشماليون هو عدنان، وإليه يعود النسب النبوي الشريف، ويرى ابن خلدون أن عدنان وجد في القرن السادس قبل الميلاد، وهذا يعني أنه تزامن وجوده مع وجود بختنصر.

على أن ماحفظه الرواة والمؤرخون عن العرب يشير بشكل واضح إلى عصر أطلق عليه عصر الجاهلية، أي الفترة الزمنية التي سبقت الإسلام. ويُرجعها بعضهم إلى حوالي ٣٠٠ـ ٢٠٠عام قبل البعثة.

وقد كانت الأخبار المتناقلة وكذلك الشعر أكثر ما تشير إلى العرب في هذا

الوقت حيث انتشرت القبائل العربية في مختلف مناطق الجزيرة العربية الصالحة للرعي والقريبة من المياه. فعرفت من هذه القبائل عبس وذبيان وتميم وكنده وقبائل قريش وغيرها، وبرزت في هذه الفترة بعض المدن الصغيرة وأهمها مكة لكونها استقطبت توجه العرب إليها، لأن فيها البيت الحرام حيث كان محجاً لكل العرب، وحيث إنهم وضعوا لهم أصناماً في مكة على عدد قبائلهم. إضافة للموقع التجاري الهام الذي تمتعت به. ومن المدن التي عرفت مكانة مرموقة آنذاك. يثرب والحيرة وبصرى، إضافة للمدن المعروفة في اليمن التي كان لها آثار حضارية تدل على أصالتها وقدمها، وقد أحيطت الجزيرة العربية بدول قوية إذ ذاك؛ فالفرس من الشرق والروم من الشمال ودولة الحبشة قريبة من شواطئ اليمن. وكان الاحتكاك مع الدول يتم عن طريق التجارة بشكل عام.

وتميز العرب في الجاهلية بنشوب الحروب بينهم. وكان الغزو سمة من سمات حياتهم، ويقال إن بعض حروبهم دامت عشرات السنين كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء، وعلى الرغم من ذلك فقد عرف العرب حياة ثقافية مميزة، حيث كان الشعر والخُطب البليغة أهم ما يميزهم في الناحية الثقافية.

وقد حرصوا على تطبيق السلام فيما بينهم في أشهرٍ معلومة أطلق عليها الأشهر الحرم، وقد كان الشعر ديوان العرب يؤرخ لهم مواقعهم ومعاركهم ومعارفهم وعاداتهم وأخلاقهم، وقد وصلنا منه الكثير في لغة عربية مقروءة ومفهومة.

أما موضوع اللغة العربية وما كانت عليه وكيف أصبحت فقد أشار الباحثون إلى أن لسان إسماعيل انطلق بالعربية في مذهب أوسع مما كانت عليه قبيلة جرهم العربية التي صاهرها، ويرى الرافعي أن أول تهذيب حقيقي في العربية يرجع إلى عهد إسماعيل، أما تنقيح اللغة قبل ذلك فإنما هو درجات في النشوء الزمني لا يمكن بوجه من الوجه أن يحدد أو ينسب إلى فرد معين[1].

وقد توزع أولاد إسماعيل وتشعبت قبائلهم بعد أن كانت لغتهم قد اشتهرت

---

(١) تاريخ الأدب العربي للرافعي.

وقطعت مسافة في التغير عن أصلها الذي اشتقت منه، فابتدأت تأخذ صورة متميزة من الاستقلال. وقد تفرقت القبائل وأخذت اللهجات تتنوع، وكانت قبائل العرب يأخذ بعضها عن بعض بالمحالفة والمجاورة. فربما انتقل لسان العربي من لغته إلى لغة قبيلة أخرى، وربما تداخلت اللغات فنشأت من اللغتين لغة ثالثة، على أنهم في ذلك لا يخرج كل منهم عن قياس نفسه ووزن طبعه. وقد نشأ بينهم التنافس في إحكام اللغة والمفاخرة بالبيان وانحراف اللسان عن الشذوذ الذي يعتبرونه خلقياً في الألسنة الشاذة، وساعدتهم على ذلك مواقعهم وأيامهم وأسواقهم. وهذا ما ساعد كثيراً على تهذيب اللغة مرة أخرى. وقد كان لقريش النصيب الأخير من تهذيب اللغة. وبحكم موقع مكة وموقع الكعبة المشرفة كان العرب جميعاً يذهبون إلى البيت الحرام حاملين معهم لهجاتهم التي استطاع القرشيون أن يأخذوا محاسنها ويضمنوه لغتهم. وقد عملت القبائل جميعها أصناماً لها في مكة حتى قيل إنهم كانوا يقربون القرابين في الكعبة من الإبل والغنم لثلاثمائة وستين صنماً.

وكان للتجارة والحياة الاجتماعية أثر بالغ في ارتفاع لغة قريش عن كثير من مستبشع الكلام، وقيل إن أذواقهم رقّت ولانت وسمت طبائعهم وقويت سلائقهم حتى صاروا أخيراً أجود العرب انتقاء للأفصح من اللغات.

وقد أفاد العرب لغوياً من التقاء فصحائهم وشعرائهم في أسواق تجارية وأدبية مشهورة في العصر الجاهلي.

(فكانوا ينزلون دومة الجندل أول يوم من شهر ربيع الأول، ثم ينتقلون إلى هَجَر بالبحرين، ثم يرتحلون نحو عُمَان، ثم ينزلون سوق المشقَّر، ثم ينزلون سوق صَحَار، ثم الشّحر، ثم ينزلون عدن أبين، ثم حضرموت، ومنهم من يجوزها إلى صنعاء ولهم أسواق أخرى غير هذه كذي الحجاز بناحية عرفة وسوق مجنّة وسوق حباشة.

أما عكاظ فهي أعظم أسواقهم اتخذت سوقاً بعد عام الفيل. وكانت هذه السوق للقول الفصيح والشعر المشهور. وكل شاعر يأتي ليمثل قبيلته. ويحتكم الكثيرون منهم إلى عمالقة الشعر الجاهلي كالنابغة الذبياني وزهير وغيرهما. وقد أثر هذا

الاجتماع اللغوي الضخم في توجه العرب نحو الفصيح من القول حتى توحدت تقريباً لهجات العرب وأصبحت لغة قريش القاسم المشترك لكل لهجات القبائل العربية. وقد عدّه بعض علماء اللغة تمهيداً لنزول القرآن الكريم على النبي العربي القرشي ﷺ.

القرآن الكريم وأثره في تطور اللغة العربية والحفاظ عليها:

ونزل القرآن الكريم على قلب النبي محمد ﷺ بلغة قريش أفصح لهجات العربية آنذاك وقد رأى وسمع بلغاء العرب وفصحاؤهم هذا القرآن فبهروا بلفظه ومعناه وأسلوبه، وأيقن الكافر به قبل المؤمن أن كلامه ليس كلام إنس ولا جن، وقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذي كان من ألد خصوم الرسول ﷺ سمع القرآن فتوجه إلى نفر من قريش يقول لهم: والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن اسفله لمغدق). ويتضح من كلامه أنه أحس في دقة أن آي القرآن تباين كلام الإنس من فصحائهم، كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كهانهم، إنه ليس شعراً موزوناً مما كان يدور على ألسنة شعرائهم، ولا سجعا مقفى مما كان يدور على ألسنة كهانهم وغيرهم من خطبائهم، إنما هو نمط وحده، فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس.

وقد عجز العرب عن معارضته عجزاً تاماً فمضوا يجردون سيوفهم ويغمدون ألسنتهم، ولم تلبث أضواءها أن انتشرت في الجزيرة العربية ودخلت العربية إلى مناطق واسعة شاسعة من العالم بفضل القرآن الكريم مما هيأ لانقلاب واسع في تاريخ اللغة العربية وآدابها)[1].

وقد نبهت دراسة العربية من خلال القرآن الكريم كل العلماء العرب وغير العرب إلى دور هذا القرآن العظيم في حفظ اللغة العربية وصونها، لكونه كتاب الوحي الذي تكفل الله بحفظه إلى أن تقوم الساعة.

---

(١) د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي ص٣١.

فالقرآن الكريم هو كتاب العربية الأكبر والأعظم والأشمل، وهو البيان المعجز وسر نهضة اللغة العربية، وهو الذي حافظ على كيانها وبقائها واستمرارها، وقد فتح القرآن الكريم مغاليق القلوب لعقيدة الإسلام. وحبب الشعوب بهذه اللغة فامتد سلطانها إلى كل بقعة أشرق فجر الإسلام فيها. واستخدمها كل علماء العصور التي قامت فيها، حتى صارت لغة لحضارة العروبة والإسلام على مر قرون خلت، وما زالت آثارها على فم كل عالمٍ معاصر.

لقد كان فضلها على الأمة العربية أكبر من أن تحيط به الكلمات. فقد رسخ القرآن عروبة بلاد الشام والمغرب العربي، وزاد رقعة الناطقين بالعربية حتى وصلت إلى الهند شرقاً وإلى إسبانيا غرباً، وإلى شمال الأرض وإلى جنوبها، فصارت لغة عالمية.

يروي البلاذري أن الحجاج قال لأهل الكوفة: (لا يؤمكم إلا عربي، فوثب بعضهم بالقارئ يحيى بن وثاب وهو مولى كان يؤم في الصلاة ليمنعوه من ذلك فانبرى الحجاج قائلاً: ويحكم إنما قلت عربي اللسان).

ويروي البلاذري أيضاً أن أبا جعفر المنصور سأل مولىً لهشام بن عبد الملك عن هويته قال: إن كانت العربية لساناً فقد نطقنا بها وإن كانت ديناً فقد دخلنا فيه.

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: (وكان من الواجب على كل من يعتنق الإسلام عن اختيار ورغبة أن يقرأ كتاب الله ويتلوه، وأن يكتب ويتكلم لغة القرآن التي هي لغة السادة الفاتحين ولغة شعراء العرب الأقدمين).

وبهذه المناسبة وجب علينا أن ننتبه إلى أن متعلمي هذه اللغة لم يكونوا هم الطبقة الحاكمة القليلة العدد فحسب، بل الفلاحون والعمال وذوو الحرف، وكلهم اندمجوا جميعاً، وامتزجوا بالشعوب فعربوها وطبعوها بطابعهم القومي المتميز.

ومن الطبيعي أن تصبح اللغة العربية لغة للإدارة والسياسة والقانون، ولغة التجارة والمعاملات وجمهور الناس. وكيف يستطيع أن يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم وسحرها الفريد؟ حتى صارت قرارات المؤتمرات المسيحية في القرن التاسع تترجم إلى العربية، وأجبروا على ترجمة الإنجيل للمسيحيين الذين اهتموا باللغة العربية.

لقد صارت اللغة العربية لغة عالمية، ووجدت تجاوباً من الجماعات غير العربية وامتزجت بهم وطبعتهم بطابعها، فكونت تفكيرهم ومداركهم، وشكلت قيمهم وثقافتهم، وطبعت حياتهم المادية والعقلية، وأعطت للأجناس المختلفة في القارات الثلاث وجهاً واحداً مميزاً.

حتى السلاجقة والأتراك والمماليك والتتار عندما وصلوا إلى الحكم ظلوا بقلوبهم رعايا مخلصين للثقافة العربية ولغتها بل لأساليب الحياة العربية وفكرها.

ويقول المستشرق الألماني يوهان فك في كتابه ـ العربية: (عندما رتل محمد ﷺ القرآن على بني وطنه بلسان عربي مبين تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد. كانت ذات دلالة عظيمة النتائج في مستقبل هذه اللغة. ولا ينحصر هذا في الدور الذي لعبته العربية منذ ذلك الوقت في العالم الإسلامي كافة من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الإطلاق)[1].

ويقول في موقع آخر من الكتاب: (وإن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة، وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية وما عداها من الأقاليم الداخلة في المحيط الإسلامي رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية، ولقد برهن جبروت التراث العربي التالد الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقالها المسيطر. وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ أيضاً بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية مابقيت هناك مدنية إسلامية)[2].

---

(١) يوهان فك. العربية ص١٣.

(٢) يوهان فك. العربية ص٢٩٢.

دور العربية في صهر الشعوب المسلمة

بدأت الفتوحات الإسلامية تتوسع تجاه الشرق وتجاه الغرب حتى وصلت زمن الأمويين إلى أقصى مدى لها في الهند وحدود الصين، وإلى الشمال في جبال الأورال، ومن ينظر إلى الخارطة التي تشير إلى تلك الفتوح يصعب عليه التصديق أن الخلافة الإسلامية باتت من الهيبة والقوة تشكل أكبر معجزة في عصرها. وحين ينظر المرء إلى عشرات الشعوب التي وصلها الفتح الإسلامي يندهش كثيراً حين يرى أن معظم الشعوب قد بدأت تدخل الإسلام بشكل كثيف. وماإن علت قرون ثلاثة بعد الهجرة حتى باتت أكثر الشعوب التي وصلها الفتح شعوباً إسلامية انصهر بعضها في بعض لتشكل أمة واحدة تبدع وتبرع في إطار الإسلام وحضارته.

والواقع أن القرآن الكريم لكونه مصدر التشريع ومصدر الحياة الدنيا والآخرة الأول فإن المسلمين في جميع هذا العالم الإسلامي وجدوا أن قراءة القرآن وفهم معانيه يُحَتم عليهم أن يتعلموا لغته العربية.

لقد أصبح كل مسلم أينما كان بلده يقرأ القرآن في حله وترحاله، وقراءة القرآن تعني تعلم العربية وإتقانها. وهذا ماسهل التخاطب بين المسلمين كافة على اختلاف قومياتهم. ونبغ منهم علماء في اللغة والأدب والنحو والصرف والبلاغة.

وحين نطالع صفحات التاريخ فإنها تخبرنا عن علماء أجلاء وفلاسفة عظام قدموا للحضارة الإسلامية أرقى أنواع العلوم في الطب وعلم النفس والفلك والجغرافيا والرياضيات. وهؤلاء العظماء من العلماء ينتمون إلى قوميات متعددة جمعهم الإسلام تحت ظله فكتبوا بالعربية جل إبداعاتهم وعلومهم. فصرنا نقرأ طب ابن سينا وابن النفيس وفلسفة الفارابي والغزالي وغيرهم بالعربية بوصفها لغة العلوم ولغة الآداب، وهي الأقدر على نشر تلك العلوم في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

فاللغة العربية في أساسها لغة دينية شريفة، ولكنها أيضاً في تفرعاتها أصبحت لغة العلوم جميعاً. وفي الأساس يتحتم على المشتغلين في أي اجتهاد ديني وفي أية

رقعة جغرافية من العالم الإسلامي أن يتقنوا هذه اللغة نحواً وصرفاً وبلاغة وبياناً وبديعاً فيعلمون المجاز والعام والخاص والإشارة وغيرها؛ حتى يتمكنوا من الغوص في معاني النصوص لاستنباط الأحكام من أدلتها الشرعية بلغة عربية سليمة. ولقد ساهم المسلمون في إيجاد القواعد الضرورية لكل فن مساهمة تحدوهم عقيدتهم لحفظ اللغة. فكان تعلمهم العربية بدافع ديني كبير، فسيبويه يبرع في النحو والفيروزآبادي في اللغة، والجاحظ في الأدب، وابن المقفع وابن النديم ونفطويه وكذلك ابن السكيت في الأدب والبيان واللغة، فمن هنا نرى أن اللغة العربية قد تلازمت مع الإسلام تلازماً كاملاً كما تلازمت اللغة الإنجليزية مع المصطلحات العلمية والطبية الدولية.

وبعد دخول الآلاف من غير العرب في الإسلام استطاعت الدولة الإسلامية أن تدخل آلاف المسلمين كمقاتلين مجاهدين في صفوف جيوشها. وكان يتحتم عليها أن تتعلم العربية. ولم يمض وقت طويل حتى صار كثير من الجنود والقادة يتقنون العربية إضافة إلى لغاتهم الأصلية.

ومع الاستقرار القوي للدولة الإسلامية الواسعة صار من المفترض أن يقبل أبناء المسلمين على تعلم اللغة العربية للوصول إلى تعلم الإسلام وتشريعاته وفقهه. وبذلك فقد انتشرت كثير من المدارس الفقهية والدينية في بلاد الإسلام غير العربية. وكان لها دور كبير وواسع في تخريج علماء الفقه واللغة والآداب وغيرها.

وقد اشتهرت من هذه المدارس الجامعة مدرسة في بخارى، ومدرسة نيسابور، ومدارس أخرى في خراسان وطشقند وسمرقند، وغيرها من تلك البلدان الإسلامية التي لايُذكر عالم إلا وتذكرمعه تلك المدارس.

وقد بلغ حب علماء الإسلام للعربية مبلغاً كبيراً. فهذا الثعالبي يقول في أول كتابه فقه اللغة: (أما بعد فإن من أحب الله أحب رسوله المصطفى ﷺ، ومن أحب النبي العربي أحب العرب. ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي نزل بها أفضل الكتب على **أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها،**

وصرف همته إليها) ويقول: (والعربية خير اللغات والألسنة. والإقبال على تفهمها من الديانة إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين).

ومما يزيد اللغة العربية شرفاً أن الشعوب غير العربية لم تجبر على تعلم العربية لأنها لغة فاتحين، بل لأنها لغة القرآن الكريم الذي يخص كل المسلمين دون استثناء. وعندما ضعفت الخلافة العباسية وتسلط السلاطين من العجم والترك وغيرهم ظلت العربية هي السائدة في الدواوين والمراسلات والدروس الدينية والعلمية حتى إنها ظلت لغة التخاطب السياسي بين هؤلاء السلاطين وغيرهم من ملوك الأقطار غير الإسلامية المحيطين بالوطن العربي كالبيزنطيين.

وهذا مايؤكد أن لغة القرآن قد صارت في شعوركل مسلم، أيّاً كانت لغته الأصلية، جزءاً لاينفصل من حقيقة الإسلام، حتى إن الفرس الذين باشروا الحكم إذ ذاك لم يكونوا يستطيعون التفكير في رفع إحدى اللهجات الإيرانية لتكون لغة الدولة[1].

وحتى عندما بدأ انحلال الدولة العباسية إلى أكثر من عشر دويلات بقي مقام العربية الفصحى، من حيث هي لغة الأدب الوحيدة في العالم الإسلامي، ثابتاً غير منازع، نظراً لبقاء وحدة الثقافة في الدولة كاملة غير منقوصة. بل لقد ازداد انتشار هذه العربية الفصحى عن ذي قبل؛ لأن جميع الأقاليم أخذت تسهم في إقامة صرح الأدب العربي بنشاط أعظم من الأوقات التي كان أدب العراق يحتل فيها المقام الأول.

والواقع أن اللغة العربية بعد أن دخلت إلى الشعوب الإسلامية أصبحت مفرداتها أساسية حتى في اللغات العالمية المختلفة. وعندما بدأت كل منطقة تعيد صياغة قوميتها، وتؤسس لنفسها إطاراً قومياً إقليمياً، ولغةً ترتبط بتلك القومية، وجدت نفسها في أَمَسِّ الحاجة لمفردات العربية. ويمكن أن نلاحظ أن آلاف المفردات العربية دخلت إلى تلك اللغات مع دخول الشعوب بوتقة الإسلام. وكونت في بعض اللغات الرصيد الأول في لغة التخاطب الرسمي والشعبي. ففي اللغة الفارسية المعاصرة، وكذلك التركية، أكثرمن أربعين بالمئة مفردات عربية. وفي

---

(١) يوهان فك: العربية صفحة ٥٩.

الأوردية وغيرها آلاف المفردات أيضاً.

وكان طبيعياً أن يؤثر القرآن الكريم تأثيره البالغ في بقاء المفردات العربية واضحة وكثيرة في اللغات الأخرى. فالمسلم الذي يرتبط أشد الارتباط بالقرآن الكريم، ولايستغني عن قراءته تعبداً أو دراسة، سيجد نفسه، وبشكل عفوي، مستعملاً المفردات العربية في حياته اليومية المتعددة المجالات.

ولعل قراءة القرآن ولو مرتين في اليوم في محطات الإذاعة أو الشاشة المرئية لدى الأقطار غير العربية دليل طيب على أن وجدان الشعوب الإسلامية موحّد في التوجه نحو هذا القرآن الكريم الذي يستمع إليه العربي وغير العربي، بل يستمتع بمعانيه، وقد يبكي تأثراً بمشاهد كثيرة يصفها القرآن الكريم ويتحدث عنها، كمشاهد يوم القيامة على سبيل المثال لا الحصر.

وإذا كانت اللغة العربية وخاصة من خلال القرآن الكريم، عامل توحّد الوجدان الإسلامي فإنها قد تكون في لحظة من اللحظات عامل توحيد جغرافي بين المسلمين، ولاسيما إذا خطت الشعوب الإسلامية خطوات صحيحة نحو هدف الوحدة الإسلامية. ونعتقد أن بعض نظريات العالم في تعريف الأمة يستند إلى عامل اللغة، وليست بعيدة عنا النظرية الفرنسية في هذا الإطار. فإذا كان هناك عوامل تساعد في وحدة الشعوب الإسلامية فإن عامل اللغة القرآنية العربية سيكون أحدها، ولهذا أيضاً فقد شجع الاستعمار في كثير من بلدان العالم الإسلامي على قيام حملات لغوية لإحياء بعض اللغات الميتة على حساب اللغة العربية القرآنية؛ بل شجع العاميّة في كثير من الأقطار، وأوجد المدافعين عنها والمحاربين للغة الفصحى. كما حدث مثلاً في لبنان ومصر والمغرب العربي.

لقد أدرك الاستعمار أهمية تمسك المسلمين باللغة العربية القرآنية منذ زمن بعيد، وأدرك أنها ستكون عاملاً حاسماً في وحدتهم، فكثف جهوده المتعددة لمحاربة الفصحى حتى في وسائل الإعلام المختلفة.

فاليوم بعد أن أصبحت المحطات المرئية في كل منزل نرى بعض المحطات

العربية تغلّب العامية على الفصحى، حتى في نشراتها الإخبارية. وقد وجدنا أبواقاً وأصواتاً في كثير من الفترات السابقة تدافع عن استخدام العامية المحلية في كل بلد دون الاهتمام بالفصحى، وهذا بالطبع كان من نتاج خلق الاستعمار لأبواق محلية تدافع عما يسمى الخصوصية الإقليمية، إن كان ذلك على مستوى الشخصية أو كان على مستوى التفكيروالثقافة واللغة.

فإذا كانت اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ عاملاً مهماً في صهر الشعوب الإسلامية في القرون الإسلامية الأولى، فإن محاربتها وإضعافها سيكون عامل فرقة وتشتت، وهذا مايحصل اليوم في أكثر من بؤرة أو إقليم إسلامي.

ولو نظرنا اليوم إلى الوضع التركي على سبيل المثال، وجدنا أن العلمانية التي حاربت الإسلام وقرآنه أضعفت كثيراً من اللغة العربية بين الأتراك. وهذا بالطبع ماسعت إليه وتسعى الدوائر الاستعمارية وعملاؤها في العالم الإسلامي، وقس على ذلك في كثير من البلدان الإسلامية الآسيوية والإفريقية.

ولعل من الملاحظ أن غالبية المسلمين غير العرب تبنوا الأسماء العربية في تسمية أنفسهم وتسمية أبنائهم، ففي بداية انتشار الإسلام ودخول غير العرب فيه صار كل من اعتنق الدين الحنيف يتخذ له اسماً عربياً أسوة بإخوته من المسلمين العرب، ومع مرور الوقت أصبح بديهياً أن يسموا أبناءهم بأسماء عربية. وماتزال هذه الظاهرة قائمة إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض وماعليها، وما بقي إسلام على وجه الأرض.

والمسألة ذات أهمية، لأن ملايين المسلمين غير العرب يتنادون بالأسماء العربية كونها أسماء إسلامية. ففي القوقاز، كما في شمال الهند، كما في مالي والنيجر، كما في جميع أنحاء العالم، نرى الأسماء العربية الإسلامية تتكرر ويعتز بها أصحابها باعتبارها تدل على مدلول الانتماء للدين الإسلامي الحنيف. وهذا ماساعد على صهر الشعوب المسلمة في وجدان واحد وانتماء واحد.

وإضافة لذلك فإن كثيراً من الأمور جديرة بالاهتمام في إطار هذا الجانب، فتعلم قراءة القرآن الكريم وتجويده وحفظه غيباً مع حفظ أحكامه صارت جميعها

ملكاً لكل المسلمين، حتى صار الأعجمي والتركي والسنغالي والماليزي والأندونيسي ينافسون العربي في تجويد آيات القرآن الكريم، بل يتفوقون عليه، ولعل مسابقات القرآن الكريم التي تجرى في أكثر من بلد عربي أو إسلامي تدلنا على مدى ماوصل إليه المسلمون وأبناؤهم من إتقان لقراءة القرآن الكريم وحفظه. ومع هذا أيضاً فإننا نرى موسماً دينياً: موسم الحج الذي يلتقي فيه مليونا مسلم من مختلف أقطار الدنيا يجمع الناس في لغة تكبير واحدة، لبيك اللهم لبيك يرددها أبناء الإسلام على اختلاف عروقهم وأجناسهم ولغاتهم. فهذه اللغة الإسلامية الخاصة بهذا الموسم تفعل فعلها في توحيد الشعوب الإسلامية وصهرها في تفكير واحد ووجدان واحد وفي بقعة جغرافية مميزة واحدة أيضاً. ومن الطبيعي أن هذا الموسم الديني الكبير يحتم على المسلمين جميعاً أن يتعرف بعضهم إلى بعض عن كثب؛ وكل منهم يحاول أن يعبر عن أفكاره ومشاعره باللغة التي يفهمها، لكن قراءة القرآن بالعربية والتكبيرو التسبيح والأدعية تشد أبناء الإسلام كافة للتحدث مع الآخرين باللغة العربية؛ فمن لايتقنها يتقن نصفها ومن لايتقن نصفها، لابد أن يلجأ إلى كلمات عربية بعينها ليوصل لإخوته من السامعين المسلمين مايريده أو يعبرعنه. وعلى الرغم من أن المدة الزمنية التي يقضيها المسلمون في الحج غير كافية لإتقان العربية من قبل الذين لايعرفونها، إلا أنها تفعل فعلها في المسلمين على المستوى النفسي والعقلي والديني.

لقد دخل الإسلام إلى مناطق واسعة من آسيا وإفريقية، وحمل المسلمون لغتهم العربية لغة القرآن إلى تلك المناطق، ووجدوا فيها عروقاً شتى وأجناساً بشرية كثيرة تتحدث أيضاً بلغات متنوعة ومختلفة. لكن الملفت للنظر أن بعض هذه الأقوام تتحدث بلغات غير مكتوبة. وحين دخلت هذه الشعوب في الإسلام وجدت فيه قرآناً متكوباً بلغة عربية مبينة، ووجدت أقوام كثيرة أن اللغةإن لم تُكتب وتدوّن بها المعارف والثقافات والتاريخ هي لغة قاصرة، وقد جاءته لغة عربية صالحة للكتابة والحديث، للتدوين والخطاب، فاتخذوها وسيلة حتى في لغاتهم التخاطبية. فالأتراك والأكراد وغيرهم كانت لهم لغاتهم المحكية غير المكتوبة. فاتخذوا الخط

العربي خطأً للغاتهم. ولما ركز الاستعمار جهده على فصل الإسلام عن اللغات ابتدع الحروف اللاتينية للأتراك والأكراد بدلاً من الحرف العربي كخطوة نحو فك الارتباط بين الانتماء للأمة الإسلامية وبين اللغة لغة القرآن. إذ إن بقاء الحرف العربي وسيلة لكتابة اللغات المحلية غير العربية يعني مع الزمن بقاء الارتباط الوثيق بالإسلام والعروبة، وهذا مالايروق للدوائر الاستعمارية.

الاستعمار ودوره في تقليص انتشار اللغة العربية:

وقد نمى الاستعمار الشعور القومي المغلق المرتبط باللغة الخاصة لدى كثير من الشعوب، وأشاع على طريقته أن لكل قومية خصائصها في تفكيرها ولغتها، ولهذا شجع الأتراك على سلخ ثقافتهم وتدوينهم عن الخط العربي، وكذلك فعل مع كثيرمن الشعوب المسلمة في آسيا الوسطى وفي إفريقية وغيرها من مناطق وجود المسلمين.

لننظر مثلاً ماذا فعل الشيوعيون الروس في المناطق الإسلامية في آسيا الوسطى، فاللغة الروسية والحرف الروسي مفروضان فرضاً على كلّ الجمهوريات التي كانت منضوية في الاتحاد السوفياتي. وعندما أخذت هذه الجمهوريات استقلالها لم تستطع إلى الآن التخلص من اللغة الروسية والحرف الروسي، على الرغم من أن تاريخها القديم وعبرحوالي ألف عام هو تاريخ إسلامي لم ينقطع عن اللغة العربية وحروفها، إلا بعد أن فرض الاستعمار الشيوعي عليها لغة الروس وثقافتهم والكتابة بأحرف لغتهم. وكل الغاية من وراء ذلك صهر تلك الشعوب صهراً قسرياً لتبقى رهينة الفكر الروسي وثقافته ولغته. وعلى الرغم من ذلك ماتزال هذه الشعوب تحتفظ بكثير من مفردات العربية كونها لغة القرآن الكريم الذي لايستغني عنه المسلمون بشتى الظروف. وبعد استقلال تلك الدول برزت من جديد الدعوة إلى الإسلام وحفظ القرآن وتعلم لغته وفقه معانيه.

ولعلنا ونحن نتحدث عن دور اللغة العربية في صهر الشعوب المسلمة يجدر بنا أن نذكر أن حملة الرسالة إلى العالم لم يفرضوا اللغة العربية فرضاً على الشعوب التي دخلت الإسلام. فكثير من قوى الاستعمار تحاول فرض لغتها بالقوة على الشعوب

لكن الإسلام الذي حرر الشعوب من عبودية الفرد للفرد، ومن الاضطهاد والعنصرية، دفع المسلمين غير العرب إلى تعلم العربية باعتبارها لغة كتاب الله الذي يرشدهم للتي هي أحسن.

الدعوة الإسلامية وأثرها في انتشار اللغة العربية:

وحين أصبح المسلمون دعاة إلى الدين الجديد عرباً كانوا أو غير عرب راحوا يجوبون أصقاع الدنيا للتعريف بدين التوحيد. وكان لابد من اللغة العربية في تجوالهم ودعوتهم، ولذلك تعلموها وفهموا القرآن الكريم بلغته ونبغوا في آدابها.

فالدعوة الإسلامية التي أسهمت على مر العصور في صهر المسلمين وتلاحمهم قد تفرض على أفرادها تعلم اللغة العربية، ليكونوا مثقفين بلغة العقيدة التي يدعون لها، ويحملوا في جنباتهم نصوص تلك اللغة من منابعها، ويلقنوها ليستلهموا من عمق النصوص وميض الدوافع الكبيرة للاستمرار في أعمالهم وإخلاصهم لعقيدتهم. كما أن الداعي إلى الله لابد له من تعلم عدة لغات وخاصة اللغة المحلية التي سيساهم فيها بالدعوة إلى الله.

والإسلام يرفد لغات الأمم باللغة العربية التي هي لغة التنزيل، للتعاون والتكامل والنضوج؛ لأن المتقن لها يستطيع إدراك الأهداف والغايات الكبرى من التنزيل الحكيم، ولقد ترجمت المعارف الإسلامية إلى كل اللغات، ولكن المجتهدين من كل أمة كانوا يتقنون اللغة قراءة وكتابة بشكل رائد وكبير. فالدهلوي شدّد في كتابه (حجة الله البالغة) على تعلم اللغة العربية لكل الدارسين من العلماء والفقهاء، وكان من أبرز علماء الهند والعباقرة في فهم اللغة بصفته مجتهداً كبيراً وقد رأى الكثير من أمثاله تعلم اللغة العربية ديناً يتقرب به إلى الله، وعلماً يتشرف فيه بمعرفة لغة الضاد، ليتبوأ المكانة الرفيعة بين أقرانه. والملاحظ أن المسلمين في أوج الحضارة الإسلامية قد ساهموا جميعهم في بناء هذه الحضارة من خلال لغة واحدة هي العربية. والظاهر أيضاً أن المسلمين عندما تعصبوا لقومياتهم على حساب الإسلام ضعفت إبداعاتهم. ولعل التشديد من قبل بعضهم على إحياء اللغات

المحلية والتعصب لها جعلهم يتراجعون، وتتراجع معهم الحضارة الإسلامية الجامعة التي كان للإسلام وللغة العربية فضل أساسي في صيانتها ورقيّها وانتشارها في أصقاع الدنيا.

إن انتشار الإسلام في آسيا وإفريقية يعني انتشار اللغة العربية. وهذا الانتشار المزدوج ساهم بشكل فعال في وحدة الجغرافيا الإسلامية السياسية والاقتصادية وهذا مادعَّم بقاء الأرض الإسلامية واحدة ضمن دولة واحدة وسياسة واحدة أيضاً. لقد صنعت لغة القرآن الكريم لدى المسلمين جميعاً شعوراً موحداً تجاه الدين الحنيف وتعاليمه، ولاسيما دعوته الناس إلى التوحيد ونبذ عبادة الإنسان للإنسان وعبادة الإنسان للأصنام والأوثان. وفي كثير من المراحل التاريخية ساهم عنصر الجهاد في سبيل الله مساهمة أولى وفعالة في توحد الشعور الإسلامي بالمسؤولية تجاه الدين الحنيف. ولعل لغة القرآن كانت ومازالت من أهم العوامل الدافعة نحو تحقيق أوامر الإسلام.

وإن بداية غروب شمس الإسلام الحضاري تلازم مع مراحل نمو الشعور الشعوبي ضد العربية والعروبة لغة وعقيدة، وقد تنامى هذا الشعور مع الزاندقة الذين حاولوا تقسيم الأمة الإسلامية وتمزيقها، وتكونت مجموعات تدعي التقدمية، وأصيبت بالذهول الفكري نحو الغرب فكراً ولغة، وتربت في مدارس الغرب وعادت لتهدم كيان هذه الأمة بمساعدة الإرساليات التبشيرية التي تهتم باللغات الغربية، وتنفث سمومها في أجيال لفصلهم عن تراثهم ولغتهم وعقيدتهم، وبذلك ضعف انتشار اللغة العربية لدى الشعوب التي سيطر عليها الغرب. وفي العقود الأخيرة قامت صحوة إسلامية تدعو إلى إتقان اللغة العربي لغة القرآن لغة الوحي المقدس، ونرى آثارهذه الصحوة في العودة لتعلم اللغة العربية لدى الشعوب الإسلامية المتناثرة في جنوب شرقي آسيا، وفي إفريقية وفي أوربا وأمريكا.

obeikandl.com

دور الإسلام في انتشار اللغة العربية

لعلنا ونحن نعيد صياغة الكلام عن دور الإسلام في انتشار اللغة العربية نتذكر أن اللغة العربية أيضاً ساهمت في نشر الإسلام. ونعتقد أن الأمرين يتداخلان إلى حد كبير، وكلا الأمرين يشبهان، إلى حد بعيد، قولنا بأن اللغة تصنع الفكر كما يصنع الفكر اللغة.

ولاشك أن دور الإسلام في انتشار اللغة العربية ينقسم إلى قسمين. القسم الأول هو دور الإسلام في انتشار العربية في الوطن العربي. والقسم الثاني هو دور الإسلام في انتشار العربية في بقية مناطق العالم الإسلامي كبلاد فارس ووادي النيل والمغرب الأقصى وفي إفريقية وجنوب شرق آسيا ووسطها وبلاد ماوراء النهر.

قد يخطر ببال أحدنا سؤال حول انتشار اللغة العربية في أقاليم الوطن العربي ودور الإسلام في ذلك، في حين أنّ المنطقة عربية منذ ماقبل الإسلام، فكيف نقول إن الإسلام لعب دوراً بارزاً في انتشار العربية؟ فالعربية موجودة سلفاً في هذه المناطق. فهل من دور للإسلام في انتشار العربية في بلاد العرب؟

عندما بدأ التحرك الإسلامي زمن رسول الله ﷺ وزمن الخلفاء الراشدين لم يكن ليقتصر على شبه الجزيرة العربية، لأن غاية الدعوة نشر الإسلام والقضاء على الشرك والوثنية. فكانت آنذاك عدة قبائل تنتمي بجذورها إلى العرب ولكنها كانت تتحدث لهجات مختلفة، قد تتباعد أو تتقارب مع العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، فكانت الآرامية تنتشر في كثير من مناطق الشام، وكذلك الكنعانية في فلسطين وساحل لبنان وساحل سوريا التي يطلق عليها الساحل الشامي، وانتشرت الكلدانية والآشورية أيضاً في العراق الأعلى ومابين النهرين، وفي مصر ظلت الهيروغليفية المطعّمة بالرومانية واليونانية منتشرة بشكل كبير. وكذلك في المغرب العربي فقد كانت الأمازيغية لغة الناس بشكل عام.

وإذا دققنا في هذه اللهجات وجدنا أن جذورها واحدة، ولكنها مع مرور الزمن اتخذت أشكالاً محلية، ما أدى إلى تباينها واختلافها.

وإذا كانت قريش في مكة قد وحدت لهجات القبائل العربية في لغة فصحى يفهمها الجميع، فإن الإسلام متمثلاً أولاً بالقرآن العربي المبين استطاع أن يوّحد اللهجات الكبرى المختلفة في لغة واحدة. إضافة لعوامل أخرى ساهمت بشكل فعال في نقل العربية إلى كل مناطق الوطن العربي أولاً.

والواقع أننا لانستطيع أن ننكر دخول بعض القبائل العربية إلى مصر والمغرب والساحل السوري وغيرها قبل انتشار الإسلام. ولكن هجرة المسلمين الكبيرة إلى المناطق العربية المحررة أسهمت كثيراً في توحّد اللغة بين السكان على مختلف انتماءاتهم.

لقد نشأت صلات قديمة بين الجزيرة العربية ومصر. وكانت القبائل البدوية تضغط باستمرار على الحدود الشرقية لمصر، ويبدو أن المنطقة الشرقية بين النيل والبحر الأحمر تخللت إليها مجموعات عربية منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وقبيل الفتح العربي كانت هناك جماعات عربية من بطون خزاعة ومن غسان وجذام في جهة الإسكندرية وتنيس والمنطقة الشرقية[1].

وجاء الفتح وشارك فيه حوالي اثنيْ عشر ألفاً جلهم من قبائل يمانية مع قلة مضرية وأنشئت الفسطاط بسنة ٢١ هـ كدار للهجرة وتجمع للمقاتلة والمجاهدين، وخططت على أساس القبائل كالكوفة والبصرة، ووضعت حامية في الإسكندرية وأخرى في خربتا إلى الغرب من الإسكندرية على طرف الصحراء. وتكاثرت الأعداد بالهجرة المتصلة بعد الفتح. فقد اشترك في فتح إفريقية في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عشرون ألفاً من المقاتلة. وتتضح الزيادة الكبيرة في التوسع في خطط الفسطاط ومن قسم من المقاتلة في الجانب الغربي من النيل. وكانت الخلافة تشجع الهجرة وتسجل كل قادم في الديوان.

استمرت الهجرة، كما كان الولاة أحياناً يأتون بجماعات جديدة عند توليتهم ففي سنة ١١٠هـ ألحق أيوب بن شرحبيل خمسة آلاف مقاتل بأمر عمر بن عبد العزيز وفي سنة ١٠٩ أخذ عبيد الله بن الحجاب عاملُ الشام الأذن من الخليفة بتسيير

---

(١) أبو العباس بن علي الغريزي. الخطط. مطبعة النيل ج١ ص ٢٨٦.

جماعات من قيس إلى مصر، وجاء بألف وخمس مئة بيت وأنزلهم في بلبيس، وتابع سياسته المؤثرة سهيل الباهلي سنة ١٢٨ هـ حتى بلغ عدد القيسية ثلاثة آلاف بيت بنهاية الفترة الأموية. وفي سنة ١٥٣ هـ أحصى عددهم فبلغ خمسة آلاف ومائتي بيت[١].

ويلفت النظر الإشارات الكثيرة من موالي القبائل إلى دورهم الكبير في الحياة الثقافية خاصة وهذا مايشعر بنطاق التعريب. وصار التعريب شاملاً في القرن الثالث كما كان الامتزاج قوياً. وساعد الإسلام على توسيع التعريب. ويلاحظ أن انتشار الإسلام كان سريعاً كما كان شاملاً. وقد سبق التعريب زمنياً وفاقه في شموله، والإسلام أعطى أهل المغرب دوراً قيادياً حين شاركوا في التوسع عبر البحر الأبيض، وحين قاموا بنشر الإسلام بين البدو في المناطق الصحراوية وعلى طريق التجارة عبر الصحراء. ولعل ملاحظة التعريب تساعد على فهم دلالته وانتشاره في المغرب. فالتعريب قبل كل شيء اتخاذ العربية أداة للتخاطب ومصطلحاً للحضارة، وهو بعد ذلك الأخذ بالثقافة التي تعبر عن ذاتها بالعربية. والتعريب يعني رابطة بين وضع لغوي ومجموعة أساليب وأذواق وعادات فكرية لاعلاقة لها بالتكوين البشري[٢].

ويكفي أن نذكر أن للإسلام والعربية دوراً أساسياً في ذلك ـ ويلاحظ أن فترة نشأة الثقافة العربية والإسلامية وهي الثلاثة قرون الأولى توافق فترة التعريب في المشرق مما يشعر باتصال وترابط[٣] وهذا كله يعتبر رافداً قوياً لإعادة اللحمة للأمة العربية.

والواقع أن المسلمين الذين انتشروا بشكل كبير في شمال إفريقية أقاموا مدناً مهمة استقطبت الكثير من العلماء والأدباء، فمدينة القيروان أصبحت في عدة قرون من أهم المدن التي صدّرت الثقافة العربية وعلوم الإسلام، وأصبحت أهم مدينة في شمال إفريقية وتجمع الكتب والمخطوطات، وتستقبل كبار العلماء واللغويين القادمين من الأندلس، ومن المشرق العربي إضافة لأبناء الشمال الإفريقي.

---

(١) الأزدي تاريخ الموصل ج٢ ص ٣٠ ـ ٣١.

(٢) القومية العربية والإسلام. مركز دراسة الوحدة العربية ص٨١ ط١، ١٩٨١ ـ ص٢/ ١٩٨٢.

(٣) المرجع السابق ص ٨٥.

وإذا نظرنا إلى التوسع والفتح الإسلامي في الشرق العربي وجدنا أن المدن التي أصبحت عواصم الدولة كبغداد ودمشق، إضافة لمدن مثل البصرة والكوفة وحلب وحمص وغيرها أصبحت مراكز إشعاع للعربية وعلومها. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح جميع أبناء المنطقة يتقنون لغة القرآن، أي العربية الفصحى بعد أن كانوا يستخدمون عدة لهجات قديمة ولغات وافدة كاللاتينية التي جلبها الرومان معهم أثناء احتلالهم للبلاد العربية.

ومع استقرار الوضع العربي في ساحة المشرق العربي والمغرب العربي واتساع المدن كان لابد أن يدعّم المد الإسلامي بالثقافة الإسلامية. وكان ذلك أهم ماساعد المسلمين العرب من القفز قفزة نوعية في تثبيت الإسلام في القلوب والعقول.

لقد انطلق العرب من روح الدعوة الجديدة ومن أصولهم الثقافية فبدأت الدراسات الإسلامية من قراءات وتفسير وحديث ومغاز وفقه. كما ظهرت الدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية، وتفتحت فنون الشعر والنثر وأدت هذه الدراسات إلى تكوين طابع ثقافي متميز للمجتمع الجديد، توجهه المبادئ والمفاهيم الإسلامية وتتخلله الروح العربية[1].

وقد ابتدأت الدراسات نتيجة الرغبة في فهم القرآن والاهتداء بسنة نبيّه ﷺ. أما الدراسات اللغوية فقد بدأت في وقت مبكر؛ لأهمية اللغة في قراءة القرآن وفهمه، وأوجب ذلك أيضاً استعمال العربية من قبل أعداد متزايدة من الموالي واختلاط العرب في الأمصار بغيرهم.

وتطلب فهم القرآن والحديث والحرص على العربية في بيئة الحواضر المختلطة القيام بدراسات لغوية بالرجوع إلى الشعر وإلى الأعراب الفصحاء بحثاً عن العربية الصافية. وأصبح من الطبيعي أن يقبل الناس على معرفة العلوم المرتبطة بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، وهذا مائبّت قوة العربية بعد أن انتشرت على مساحة كبيرة من الأرض وأصبحت قبلة أبناء الشعوب الإسلامية قاطبة وليس أبناء العرب فحسب.

---

(١) المرجع السابق ص ٨٦.

لقد كان للإسلام دوره الرائد في انتشار العربية الواحدة في كل مناطق الوطن العربي، وحين نلقي نظرة على دور المساجد الجامعة في ذلك نجد أن المسلمين العرب الذين أصبحوا في دائرة التوحيد تجمعهم الصلوات الخمس، فهم يسمعون القرآن الكريم بالعربية، ويتحلقون في حلقات درسية، يستمعون لدروس في التفسير والحديث والفقه والعلوم الأخرى. ولعل هذا ماربط الجميع باللغة العربية، حيث إن القرآن العظيم أصبح على لسان كل مسلم وفي قلبه. وهو الكتاب الذي شرف العرب به وبلغته العربية وبمعانيه الرفيعة وألفاظه الخاصة.

وكما أحس العرب الأوائل في أيام الدعوة الأولى بعظمة القرآن الكريم ولغته، فقد أحس ذلك الإحساس كل من دخل الإسلام وراح يقرأ كتاب الله قراءة صحيحة. وإن كان فصحاء العرب من الجاهليين دهشوا وسحروا للُغة هذا القرآن فلا عجب أن يقف المتأخرون نفس الموقف وإن كانوا لم يدخلوا الإسلام بعد، وعندما دخلوه وشرح الله صدورهم له انقلب الاندهاش إلى حب عارم ودفاع مستميت عن الدين ولغته. وانقلب السحر البلاغي القرآني إلى روح تعانق المعجزة القرآنية عناقاً راسخاً لايتزعزع.

ولعل أهم مايلاحظ في تاريخ اللغة العربية ابتداء من الثلث الأخيرمن القرن الأول الهجري أنها أصبحت ذات مكانة مرموقة وطيدة في الدولة الإسلامية وذلك لعدة أسباب أهمها:

١ ـ أنّ العربية أصبحت اللغة الرسمية للدولة الإسلامية، فقد عربت الدواوين حوالي سنة ٨٧هـ.

٢ ـ أنّ العربية كانت لغة الطبقات الحاكمة في المجتمع. واستخدام الفصحى دليل على الرقي وعلى المكانة الاجتماعية.

٣ ـ أنّ العربية المولدة أي التي بها أخطاء كانت لغة الطبقات الدنيا في المجتمع.

٤ ـ أنّ اللغة العربية الفصحى ظلت لغة الشعر الذي تعتز به الطبقات العليا في المجتمع.

٥ ـ أنّ اللغة العربية هي لغة الدين ولغة القرآن الكريم ولغة العبادات ولغة العلوم والثقافة، فإذا نظرنا إلى الواقع العربي في الأقطار العربية من العراق شرقاً حتى

المغرب غرباً في القرن الهجري الأول حتى نهاية الدولة الأموية وجدنا أن هناك تلاحماً واضحاً بين العربية الفصحى وبين الدين. حتى إنّ كثيراً من العلماء قالوا بأن من لايتقن العربية لايكتمل دينه. وكان القصد من ذلك أن اللغة العربية يجب أن تُتقن حتى تتقن قراءة القرآن الكريم وقراءة الأحاديث النبوية الشريفة وحتى يُتقن فهم معاني الآيات القرآنية ومافيها من أحكام.

والواقع أننا لو فصلنا الدين عن اللغة لكان تعلم العربية تعلماً قسرياً يفرضه الفاتحون على الشعوب المغلوبة. والواقع أن المسلمين عندما حرروا أقطار الوطن العربي من الاستعمار الروماني لم يفرضوا اللغة الواحدة فرضاً. إنما الذي دفع جموع سكان هذا الوطن إلى العربية الواحدة هو كون القرآن الكريم كتاب المسلين أينما كانوا وهو منزل بالعربية؛ والحقيقة أنه لولا وجود القرآن الكريم ماكنّا ندري كيف حال العربية عندما تشتت العرب وانقسموا على بعضهم أيام ضعف الخلافة وانقراضها في أواخر القرن الخامس الهجري.

فعلى الرغم من ضعف الخلافة واضمحلالها ظلت العربية تنتشر وتزدهر حتى عندما سيطر الفرس والأتراك وغيرهم على السياسة الدولية والمحلية في المنطقة العربية وخاصة في العاصمة العباسية بغداد.

والحقيقة أن ضعف الدولة العربية لم يؤثر في مسار العربية ذلك التأثير الذي يشوهها أو يمحوها، والسبب هو أن القرآن الكريم وبالتالي الدين الإسلامي حفظ للأمة لغتها وصانها كما صان الله سبحانه وتعالى قرآنه من التحريف.

وهذا هو السر في قولنا إن القرآن الكريم والدين الإسلامي بشكل عام لعبا الدور الأهم في حفظ العربية من الضياع أو التشويه، على الرغم من ضياع الدولة الواحدة.

ليس من شك في أن الإسلام كان له الدور الأول والرائد في انتشار اللغة العربية في الأقطار الآسيوية والإفريقية غير العربية. ونعتقد أن الإسلام هو العامل الوحيد الذي دفع بأبناء الشعوب غير العربية لتعلم اللغة العربية.

ولعل أهم مادفع الشعوب الإسلامية غير العربية لتعلم هذه اللغة هو حاجتهم

لقراءة القرآن الكريم، إن كان ذلك في صلواتهم أو كان من أجل اكتسابهم علوم الكتاب العزيز التي انتشرت أيضاً بشكل كبير في القرون الثلاثة الأولى للإسلام.

وعندما كانت عاصمة الدولة الإسلامية في دمشق أيام الأمويين وفي بغداد أيام العباسيين، كان من الطبيعي أن يقبل المسلمون على تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة التعامل السياسي الرسمي لأن الخليفة عربيٌ والدولة عربية إسلامية، فجميع العلاقات السياسية كانت ترتبط برأس الدولة وعاصمتها، فلا تستطيع هذه الشعوب تسيير أمورها إن لم تكن هناك علاقات بين الأقاليم والعاصمة. وهذا يتطلب إتقان العربية؛ لأنها لغة التخاطب بين تلك الأقاليم ومركز الدولة.

إلاّ أننا لو عدنا إلى بداية الفتوحات الإسلامية وتقبل الشعوب لهذا الدين الجديد لوجدنا أن أهم حاجة إلى اللغة العربية تكمن في العلاقة بين المسلم وبين القرآن الكريم.

لقد أقبلت كل الطبقات الاجتماعية غير العربية في المجتمع الإسلامي على تعلم اللغة العربية. فالعربية لغة القرآن الكريم ولغة الصلاة. وقد أدى دخول معظم سكان المناطق المفتوحة في الإسلام إلى ظهور الرغبة لدى هؤلاء لدراسة القرآن الكريم لفهم أحكام الإسلام وللعمل في ضوئها. ولذا نجد أن الاشتغال بنص القرآن الكريم ومحاولة فهمه وتقريبه أول مظهر للبحث العلمي في المجتمع الإسلامي[1].

والواقع أنه لم يمض وقت طويل حتى رأينا العلماء المسلمين من غير العرب يتصدرون غيرهم في علوم القرآن الكريم والحديث النبوي واللغة والنحو. وماذلك إلا بسبب تعلقهم بالقرآن الكريم بوصفه كتاباً منزلاً من الله وله قدسيته الفريدة في حياتهم جميعاً.

يقول أبو الحسن علي الحسني الندوي: (اختار الله العرب للإسلام لخصائص طبعية ومزايا خلقية يتفردون بها. ويقول: عَقَدَ الله بين العرب والإسلام للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر. فلا عز للعرب إلا بالإسلام، ولايظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلا إذا قاد العرب ركبه وحملوا مشعله).

---

(١) د. محمد حجازي. اللغة العربية عبر القرون. أيار ١٩٦٨، ص ٤٦.

وقال شيخ الإسلام الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦هـ: نحن رجال غرباء هاجر آباؤنا إلى الهند، وإن عربية النسب وعربية اللسان مفخرتان لنا وهي التي تقربنا إلى سيد المرسلين سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين ومفخرة الوجود.

ثم قال: السعيد منا من حصلت له مشاركة في لسان العرب والصرف والنحو وكتب الأدب، واطلع على الحديث والقرآن، ولابد لنا من حضور الحرمين الشريفين.

ويقول الندوي: (وأخفقت الحكومات الجبارة في اقتلاع هذا الحب من نفوس شعوبها المسلمة وقطع صلتها عنه. وقد منعت الحكومة التركية الأذان باللغة العربية أكثر من ربع قرن، حتى إذا سمح لهم بذلك في العهد الأخير، ودوّى الأذان العربي أول مرة على منابر تركيا سجد الأتراك في الشوارع شكراً وفرحاً وذبحت ألوف من النعاج والغنم.

فهل للُغة من لغات العالم هذه المنزلة في النفوس وهذه المحبة في القلوب؟ وهل كان للعربِ هذا النفوذ العقلي والثقافي في العالم؟ وهل كان لعلومهم وآدابهم هذا النَّفاق العجيب والرواج العظيم وهذه السيطرة على العقول والقرائح لولا الإسلام، ولولا البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)[1].

ويصف أبو الحسن الندوي تعلق الشعوب غير العربية باللغة العربية بسبب حبهم للقرآن الكريم والدين الإسلامي بقوله: (ظلت تسيطر على أكبر رقعة من العالم الإسلامي، وعلى أعظم مجموعة من العقول البشرية رغم ضعف العرب. فكانت لغة التأليف، ولغة الحكمة، والفلسفة ولغة البحث العلمي، ولغة الفقه والكلام ولغة التاريخ والأدب ولغة التفسير في الهند وباكستان وتركستان، ولاتزال له مراكز ثقافية كبيرة. ويبلغ عدد من يحسنها قراءة وفهماً في هذه البلاد الأعجمية مئات الألوف، ولايزال يتعصب لها، وإذا خيّر بين لغته الوطنية التي نشأ عليها وبين اللغة العربية التي نزل بها القرآن آثر اللغة العربية على لغة بلاده، وحرص على تعليمها لأولاده، ولاسبب لذلك إلا لأنها لغة العقيدة والشريعة ولغة الإسلام (الرسمية) وكان الشيخ علي المتقي من رجال القرن العاشر يؤلف في هذه اللغة وليس على وجه الأرض حكومة عربية صحيحة تكافئه على

---

(١) الندوي: العرب والإسلام ص ٧٠.

هذا البر باللغة العربية. وقد كان تلميذه محمد طاهر المتوفى سنة ٩٨٦هـ يؤلف كتابه البديع (مجمع بحار الأنوار) في شرح غريب الحديث في اللغة العربية، وهو في الهند بعيداً عن مركز هذه اللغة، وقد ألف الشيخ محمد علي التهانوي كتابه الفريد (الكشاف) في القرن الثاني عشر والشيخ أحمد الدهلوي ألف كتابه (حجة الله البالغة) في القرن الثاني عشر، وكلاهما آثر اللغة العربية لأثرهما العلمي الكبير، لأنها في عقيدتهما لغة الإسلام ولغة العلوم الإسلامية. ولغة المؤلفين الإسلاميين الحية الأثيرة.

وقد أفاض الإسلام على اللغة العربية قدسية ليست لغيرها من اللغات، وغرس حبها في نفوس المسلمين وفي سويداء قلوبهم حتى أصبحوا يؤثرونها على لغة آبائهم وأجدادهم وبلادهم[١].

وحتى عندما ضعفت الدولة العربية في القرن الخامس الهجري، وعندما حاول السلاجقة إبعاد العربية عن الإدارة ووضع الفارسية محلها لم يستطيعوا أن يتخلوا عنها، بل وجدوا أنفسهم مضطرين للحفاظ عليها. ففي القرن الخامس نفسه ظهرت المدرسة النظامية المنسوبة إلى نظام الملك، وقد أسست عام ٤٥٩هـ، وبتأسيس هذه المدرسة نلاحظ تحولاً، فقد اهتم السلجوقيون بالعربية الفصحى في عصورها المبكرة، لأن هذا يعين على فهم الدين ولكنهم اعتبروا الفارسية لغة حياة. وممن درس في المدرسة النظامية التبريزي نسبة إلى تبريز، ويعتبر التبريزي دراسة العربية وسيلة لفهم القرآن الكريم والسنة، ونلاحظ عند المشتغلين بالعربية في ذلك الوقت تديناً شديداً جعلهم يذكرون أن أشرف العلوم علم الكتاب والسنة، وأن مفتاح هذه الدراسة اللغة العربية[٢].

ولعل من العوامل الهامة التي ساهمت في انتشار العربية، خاصة في العصر العباسي، انتشار الترجمة. وقد ساهم أكثر من ساهم فيها المسلمون غير العرب حيث راحوا يترجمون روائع الأدب والفلسفة والقصص عن الهندية والفارسية واليونانية

---

(١) الندوي. العرب والإسلام ص ٧٠.

(٢) محمود حجازي. اللغة العربية عبر القرون ص ٦٥.

وغيرها. وكان لابد لكل من ترجَم أن يُتقن العربية إلى جانب إتقانه لغة قومه.

ولاشك أن الذين اشتغلوا بالترجمة نقلوا لشعوبهم وأبناء بلادهم الكثير من العلوم العربية وآدابها مثلما نقلوا إلى العربية علوم شعوبهم وفلسفتهم وأفكارهم.

وقد كان للخلفاء دورٌ بارز في نقل العلوم والفلسفة إلى العربية. واشتهر المأمون كثيراً في هذا المجال حيث نقل الكثير عن اليونانية والرومانية وكذلك عن الهندية والفارسية.

ولم يمض وقت طويل حتى ترجمت إلى العربية غالبية كتب الحضارات القديمة أو الحضارات المعاصرة. واستطاع المترجمون المسلمون وغيرهم أن ينقلوا هذه الكتب إلى العربية، التي بدورها انتقلت إلى أوروبا على أيدي الأدباء والفلاسفة العرب وغيرهم.

ونعتقد أن دورالدعاة المسلمين العرب كان الدور الأبرز في إيصال القرآن الكريم والإسلام واللغة العربية إلى جنوب شرق آسيا، وكذلك إلى أعماق إفريقية وبلدانها الساحلية، حيث لم تصل الفتوحات الإسلامية إلى هذه المناطق، واقتصر دخول الإسلام على جهود التجار العرب المسلمين الذين كانوا في الوقت ذاته دعاة للدين الإسلامي الحنيف، الذي حمل معه القرآن الكريم واللغة العربية.

والواقع أن كثيراً من المناطق التي لم تصلها حركة الفتوحات الإسلامية وصلها الدعاة العرب عن طريق التجارة والتعامل مع أهل تلك البلاد وإقامة علاقات مميزة معهم.

في وقت مبكر بعد البعثة الإسلامية استطاع المسلمون الوصول إلى بلاد القفقاز وأحياناً وصلوا إلى سيبرية. وكذلك جابت سفنهم المحيط الهندي ووصلوا إلى أرخبيل الملايو إلى أندونيسيا وماليزيا، وكذلك جنوب الفلبين وجنوب تايلاند ومناطق في بورما ولاوس وكمبوديا. وماتزال في هذه البلاد آثار للمسلمين الأوائل الذي زاوجوا في علاقاتهم بين الدعوة إلى الدين الحنيف وبين العلاقات التجارية والمالية مع أهل البلاد الأصليين. أما في إفريقية فقد تضافرت عدة عوامل في وصول الدعاة إلى كل مناطقها منها عوامل ذاتية ومنها عوامل أخرى، كوجود المرابطين في

المغرب ودعمهم المستمر لنشر الدين الحنيف واللغة العربية، وإقامة مراكز إسلامية كبيرة في عدد كبير من البلدان الافريقية، والواقع أننا لو نظرنا إلى نسبة عدد المسلمين في كل من أندونيسيا وماليزيا وكذلك في نيجيريا وسيراليون ومالي وغيرها لأدركنا قوة مابذل الدعاة المسلمون في نشر الإسلام واللغة العربية فيها.

وقد أشارت بعض المخطوطات وبعض الكتب إلى مابذله الدعاة في نشر اللغة العربية والدين الحنيف في تلك البقاع غير العربية.

منها مثلاً كتاب تحفة المجاهدين، وهو من تأليف زين الدين بن عبد العزيز المعبدي وقد تحدث فيه عن وصول الإسلام إلى بلاد مليبار على ساحل الهند الغربي.

وقد كانت هذه البلاد على اتصال وثيق عن طريق البحر بجنوب الجزيرة العربية ـ اليمن وحضرموت وظفار، ولايُستبعد أن يكون مؤلف الكتاب من أسرة عربية قدمت من جنوب الجزيرة العربية واستقرت على ساحل مليبار.

ومايهمنا من الكتاب تلك الإشارات وتلك الأحاديث عن دخول الإسلام إلى هذه المنطقة. وذكر الكتاب أن جد المعبدي أنشأ مدرسة ونزلاً في مدينة فنان على ساحل مليبار إلى الجنوب قليلاً من كالكوتا. وكان يؤمه طلبة العلم حتى من جزر الهند الشرقية. ومن مؤلفاته (هداية الأزكيا) الذي صدرت له شروح في كل من الحجاز وجاوة في أندونيسيا.

ومع مرور الوقت أقام التجار العرب جاليات عربية، ومما زاد من علاقتهم بالسكان الأصليين أنهم تزوجوا من نسائهم. وبعد ظهور الإسلام أخذت الجاليات العربية تقيم المساجد في موانىء مليبار دون أن تلقى تعصباً أو اضطهاداً من الحكام الهندوس، وقد اعتنق الإسلام صاحب كاليكوت في أوائل القرن الثالث الهجري وماإن حل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي حتى كان الكثيرون من سكان سواحل الهند من كجرات إلى مليبار إلى المعبر إلى البنغالة قد اعتنقوا الإسلام، ويعود الفضل الأكبر في ذلك إلى التجار والدعاة العرب والفرس الذين استقروا في البلاد وتزاوجوا مع أهلها وبذلك مهدوا لانتشار الدعوة.

ومما ساعد كثيراً في انتشار اللغة العربية في هذه المناطق إشادة المساجد واستدعاء الفقهاء الذين كانوا يتولون الدعوة للإسلام.

وفي حدود عام ٦٠٠هـ وصل الإسلام من ساحل مليبار إلى جزر مالديف. ويقول ابن بطوطة إن إسلامهم تم على يدي فقيه مغربي يسمى بأبي البركات.

ويقول ابن بطوطة واصفاً سكان مدينة هنور إن أهلها شافعية المذهب لهم صلاح وجهاد في الحرب بالبحر وقوة. ومن خصائص نسائها أنهن جميعاً يحفظن القرآن الكريم، ورأيت في المدينة ثلاثة عشر مكتباً لتعليم البنات، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد ولم أر ذلك في سواهما.

ويقول أيضاً عن مدينة فندرينا إن بها ثلاث محلات في كل محلة مسجد، والجامع بها على الساحل، وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عُمَان.

فهذه الإشارات عن وجود المدارس الكثيرة وخطباء المساجد والفقهاء تدل بشكل واضح على وجود اللغة العربية في المنطقة وانتشارها على يد هؤلاء الدعاة.

ولاشك أن إشارة ابن بطوطة إلى حفظ النساء للقرآن الكريم يدل على مدى اهتمام هؤلاء المسلمين بالقرآن وبلغته العربية.

ويتحدث مؤلف كتاب تحفة المجاهدين عن ظهور الإسلام وانتشاره في مليبار، وعن أخلاق التجار العرب المسلمين الذين حملوا الدين الجديد واللغة العربية إلى تلك المناطق، كما ذكر أن ملك كاليكوت أسلم وسافر إلى جنوب الجزيرة العربية ثم عاد ليعمر المساجد والمدارس التي تعلم القرآن ولغة لقرآن.

وقد انتشر الإسلام في جنوب شرق آسيا حاملاً معه اللغة العربية. فمثلا منطقة مليبار احتك المسلمون بالشعب الماليزي منذ القرن الأول الهجري ـ السابع الميلادي وذلك من خلال التجارة الواسعة التي كانت قائمة فعلاً قبل الإسلام بقرون عدة، وخاصة مع كل من الهند والصين وأرخبيل الملايو.

وقد سمع الشعب الملاوي عن الإسلام منذ وصوله إلى الأرخبيل منتصف القرن

السابع الميلادي، ودرسوه من ذلك الوقت، فاعتنقه منهم أفراد سكنوا في أنحاء ماليزيا وكذلك في المناطق المجاورة. وقد ظهرت الدعوة الإسلامية في الصنف (شامبا بأقصى شمال جزيرة الملايو). ودل على ذلك الآثار الإسلامية المكتشفة فيها، وظهرت أيضاً في تايلند وبعض المناطق الساحلية التي يتردد عليها التجار المسلمون[١].

وازدادت الدعوة الإسلامية قوة وظهوراً وانتشاراً في القرن الحادي عشر الميلادي على أيدي التجار المسلمين من الهنود.

ومما يدل على ترافق انتشار اللغة العربية مع الإسلام اكتشاف دينار أثري منقوش فيه الكلمات العربية (الجلوس كلنتن ٥٧٧ الموافق ١١٦١ إفرنجي)، ودل هذا الدينار على أن دول إسلامية قد ظهرت وقامت في ولاية كلنتن في آخر القرن الثاني عشر إفرنجي، واكتشف أيضاً في ولاية ترنجانو المجاورة لكلنتن حجر أثري في عام ١٩٢٢ ومنقوش عليه باللغة المالوية وبالحرف العربي العبارات التي تتعلق ببعض الأحكام الفقهية التي طبقت في ولاية ترنجانو في ذلك الوقت، والتاريخ المنقوش عليها هو ٧٠٢هـ أي الموافق سنة ١٣٠٢ إفرنجي وهذا يدل على أن دولاً إسلامية قد قامت في ترنجانو في أول القرن الرابع عشر إفرنجي[٢].

وتقول بعض المصادر التي أرّخت لحركة الدعوة الإسلامية إن الرواد الأوائل في حقل الدعوة الإسلامية كانوا كلهم من العرب. ومامن خبر عن دخول الإسلام في قرية ما أو محافظة أو ولاية أو اعتناق ملك للإسلام أو رئيس قوم في أرخبيل الملايو إلا كان دعاته من العرب، وبعضهم يرقى نسبه إلى رسول الله ﷺ.

وهناك أخبار وقصص كثيرة يتناقلها أهالي الأرخبيل تحكي عن كيفية دخول الإسلام إلى تلك المناطق على يد المسلمين العرب، ويُرَدُّ أيضاً كثير من أسماء الأماكن والألقاب إلى أصول عربية قديمة[٣].

---

(١) تاريخ الدعوة الإسلامية في ماليزيا. دوان عزمي. مجلة الدعوة الإسلامية العدد ٥ ص ٢٨٤.

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٥.

(٣) عبد الوهاب بن الحاج كيا مسلمو ماليزيا بين الماضي والحاضر ص ٣٩، كلية الدعوة الإسلامية ١٩٩٣.

والواقع أننا لو تفحصنا أسماء الماليزيين لوجدنا أنها أسماء عربية ؛ كعبد الكريم، وأنور ومحمد وعبد الغفار وما إلى ذلك من الأسماء الإسلامية العربية.

وقد اشتهر خلال ازدهار دولة آتشيد الإسلامية عام ١٥٠٧ في جزيرة سومطرة عدد من الدعاة العرب والمسلمين الذين ساهموا بشكل فعال بنقل العربية إلى هذه المناطق، مستندين في ذلك على نشر تعاليم الإسلام والأمور الفقهية.

ومنهم الشيخ نور الدين الرانيري الذي جاء من جوجوران بالهند عام ١٦٣٧ وألف كتاب (بستان السلاطين) بيَّن فيه مسؤوليات السلطان وصفاته وآدابه. وكان الرانيري عالماً فقيهاً متصوفاً ومؤرخاً، وذاعت شهرته في كل مكان، ومنهم الشيخ إبراهيم الشامي، والشيخ أبو الخير، والشيخ محمد اليماني، والشيخ عبد الرؤوف الباروسي العالم في الأحكام الشرعية، الذي قام بترجمة تفسير البيضاوي إلى لغة الملايو وغيرهم كثيرون[١].

والذي يلفت النظر أن أُسّراً حضرمية انتشرت في الملايو (أندونيسيا وماليزيا) وسنغافورة، منها العطاس والجنيد والكاف والسقاف والعيدروس والخرد والمشهور، ومعظم هؤلاء كانوا من السادة المنسوبين إلى آل البيت استوطنوا أماكن متفرقة في ولايات برليس وجوهر وترنجانو وباهنج وغيرها من الملايو. وكان منهم دعاة وتجار وسياسيون وعلماء. وقد شيدوا المساجد والمدارس الإسلامية التي تُعنى بتعليم القرآن الكريم واللغة العربية والعلوم الإسلامية الأخرى. ومن المدارس العربية في سنغافورة مدرسة السقاف، ومدرسة العطاس العربية في ولاية جوهر، وجميع هذه المدارس العربية الإسلامية باقية إلى يومنا الحاضر[٢]. وقد ترك الحضارمة آثاراً كثيرة في الحقل الإسلامي منذ وصولهم إلى الملايو حتى يومنا هذا من ذلك:

١ ـ وجود عدد من المدارس العربية والإسلامية التي بناها بعض الحضارمة كما تقدم ذكرها.

٢ ـ قام بعض الحضارمة بإصدار الجرائد والمجلات الإسلامية، وتأليف الكتب

---

(١) المرجع السابق ص ٨٣.

(٢) المرجع السابق ص ٨٧.

الدينية والعربية، من أمثال شيخ الهادي، والسيد علوي بن طاهر عبد الله الحداد، والسيد إبراهيم عمر السقاف، والسيد عبد الله حامد العيدروس. وقد أصدر الحداد جريدة اسمها الأرخبيل بسنغافورة في نهاية الخمسينات. وأصدر العيدروس عدة مؤلفات ومجلات منها مجلة (قلم) وله مطبعة تجارية[1].

ولقد لعبت الطرق الصوفية دوراً مهماً في نشر اللغة العربية مع الإسلام في أرخبيل الملايو، وقد استطاعت هذه الطرق استقطاب كثير ممن حسن إسلامهم وصدقت نياتهم، ويرجع انتشار الطرق الصوفية في ماليزيا إلى عهد السلطان منصور شاه (بمالقه) حين جاء إليها العالم الصوفي مولانا أبو بكر من مكة المكرمة ومعه كتاب دار المظلوم لأبي إسحاق الشيرازي، وقد تُرجم الكتاب إلى اللغة الملاوية. وقد وصل إلى ماليزيا آخرون من البلاد العربية قاموا بنشر العربية والتعاليم الصوفية.

وماتزال بعض الأوراد الصوفية المتوارثة يتلوها المصلون بالعربية والملاوية عقب صلواتهم في المساجد حتى الآن.

وقد أقام علماء المسلمين في ماليزيا نظاماً تعليمياً أسموه نظام فندق التعليمي، وهو أن يجلس الطلبة أمام المعلم في أحد المساجد يستمعون إلى العلوم الدينية والعربية حسب الكتب المقررة عليهم، وكانت هناك حول المسجد أكواخ يقيمها الطلبة ويسكنونها تعرف باسم فندق، وهو أشبه بالنظام التعليمي القديم الذي يوجد في المسجد الحرام أو الجامع الأزهر وبيت المقدس.

وكانت المواد التي تدرّس في هذا النظام هي العلوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعلوم الإسلامية كالفقه وأصوله وأصول الدين، وعلوم القرآن والتفاسير والحديث ومصطلحه والتصوف والأخلاق. ومن الكتب المقررة والمراجع لهذه المواد متن الأجروميّة وشرحه، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب في النحو، ومتن الغاية والتقريب. وفتح القريب، ومنهاج الطالبين، والسراج الوهاج، والتفاسير مثل النسفي والبيضاوي وابن كثير والخازن والطبري، ومن

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧.

الكتب أيضاً إحياء علوم الدين، والفتوحات المكية، وفصوص الحكم وهي في التصوف والأخلاق[1].

وقد أثبت هذا النظام أن اللغة العربية هي لغة المسلمين أجمع قديماً وحديثاً وشرقاً وغرباً. فمن الطلاب الذين تخرجوا في هذه المعاهد الماليزية مَنْ أكملوا دراستهم في البلاد العربية والإسلامية حتى إن بعضهم ألف كتباً بالعربية.

ظلت اللغةالملاوية تكتب بالحروف العربية منذ أن دخل الإسلام أرخبيل الملايو وتترجم إليها الكتب الفارسية والهندية والعربية، وتقدم دراسة اللغة بهذه الحروف، فألف بها عدد كبير من العلماء كتباً إسلامية في التوحيد والفقه والأخلاق والتصوف والعلوم العربية والتاريخ والحديث والتفسير وغيرها.

وماتزال الحروف العربية جزءاً لايتجزأ من التراث القومي الماليزي، ولها مكانة علية عند المسلمين؛ لأنها لغة القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ، ولايوجد من أبناء المسلمين في ماليزيا من لم يعرف الحروف العربية.

وأثر اللغة العربية مازال قائماً في اللغة الملاوية حيث تجد آلافاً من الكلمات العربية فيها، وقلما يتكلم إنسان في الملاوية بجملة واحدة دون أن يلفظ بكلمات عربية، وتأثير العربية في هذه اللغة أكبر وأقوى من أي لغة أخرى.

وأكثر الكلمات العربية انتشاراً في اللغة الملاوية الكلمات المعبرة عن القضايا العقيدية مثل إيمان، شرك، ملائكة، حسن، إبليس، مؤمن، كافر، شيطان، ومنها مايتعلق بالأحكام الشرعية مثل حلال، حرام، واجب، سنة، مكروه، مباح، ومنها أيضاً مايتعلق بالقيم الأخلاقية مثل معروف، منكر، حكمة، موعظة، عدل، ورع، ومنها أيضاً مايتعلق بالأوقات والظروف مثل فجر، صبح، ضحى، ظهر، عصر، مغرب، ومنها في أسماء مختلفة. مثل إخوان، صحابة، قرابة، نفس، بدن، روح، جسم، لسان، وقد انتشرت القواميس العربية الملاوية. وأشهرها قاموس إدريس المربوي، يقع في مجلدين ويحتوي كل مجلد على ثمانية عشر ألف كلمة.

---

(١) المرجع السابق ص ٩١.

ومنها قاموس عربي/ أندونيسي، والقاموس الذهبي. وهما من تصنيف العلامة محمود يونس الأندونيسي. ومنها قاموس الحميدي الراوي. ويوجد أيضاً في ماليزيا عدة مؤلفات تتعلق بتعليم اللغة العربية لأبناء المسلمين الماليزيين، وماذلك كله إلا لأن العربية لغة الدين الإسلامي ولغة العلم والمعرفة ولغة التفاهم يتحدث بها المسلمون في معظم أنحاء العالم، وأيضاً لأنها أصبحت مادة أساسية في المرحلة الثانوية لدى المدارس الحكومية الماليزية[1].

بنغلادش واللغة العربية:

وإذا انتقلنا على سبيل المثال من أرخبيل الملايو إلى منطقة أخرى من جنوب شرق آسيا وهي بنغلاديش وجدنا أن للُّغة العربية شأناً كبيراً في تاريخ هذا البلد ماضياً وحاضراً، وكان العصر الذهبي لانتشار الإسلام واللغة العربية قد بلغ ذروته منذ قيام أول حكومة للمسلمين على يد اختيار الدين محمد بن بختيار خلجي عام ١٦٩٧ ـ ١٧٦٥. وقد تعاقب على حكمها ٧٦ حاكماً من المسلمين العرب والفرس والترك والأفغان والبنغاليين، وقد شجعوا العلماء والفقهاء وأظهروا اهتماماً كبيراً بنشر الإسلام في أنحاء البلاد؛ حيث كان معظم هؤلاء العلماء من بغداد بعد سيطرة المغول عام ١٢٥٨. فاستوطنوا فيها وعاشوا بين أهلها حتى أدركتهم الوفاة كما يشهد بذلك التاريخ.

وأسس هؤلاء العلماء كثيراً من المساجد والمدارس والمعاهد والتكايا والخلوات لتعليم الدين واللغة العربية والتربية الإسلامية. فانتشر الإسلام في ذلك الوقت أضعافاً مضاعفة بشرف جهودهم المستمرة هادفين لنشر الإسلام وتبليغ الدين الحنيف حتى عم البلاد[2].

وبعد عام ١٩٧١ انفصلت بنغلادش عن باكستان، وانصبت نشاطات الحكومة على مجال تعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية ونشرها وتطويرها، فأنشأت كثيراً من المعاهد

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٦.

(٢) الطاهر أحمد حسين. وضع اللغة العربية والثقافة الإسلامية في بنغلاديش. مجلة الدعوة الإسلامية ص ٨٥ ـ ٨٦ العدد الثامن.

والمؤسسات والمدارس والكليات والجامعات التي تدرس فيها اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وكان الحافز الأكبر لتعليم اللغة العربية هو الحاجة إلى فهم القرآن الكريم والسنة المطهّرة بالدرجة الأولى، ولتوثيق الصلات وتوثيق الروابط بين بنغلادش وبين الدول العربية والإسلامية والتعرف على الحضارة والثقافة العربية الإسلامية من جهة أخرى.

ولكثرة اهتمام البنغاليين باللغة العربية كونها لغة القرآن فقد عم تعليمها في المدارس العامة، وكذلك في المدارس الحكومية. فعلى سبيل المثال توجد شعبة مستقلة للغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية في معظم الجامعات. ويلتحق بها كثير من الطلاب الذين تخرجوا من المدارس الإسلامية، بعد أن يحصلوا على شهادة الثانوية العالية، أما المدارس الحكومية فإنها تقع تحت إشراف مجلس التعليم للعلوم العربية والإسلامية، ويحصل الطلاب فيها على علوم في التفسير والحديث والفقه والأدب. ومن الكتب التي تدرس فيها الصحاح الستة وأصول الحديث وتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير البيضاوي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي. وإعجاز القرآن للباقلاني ودلائل الإعجاز وغيرها. أما مايخص الأدب العربي فإن الطلاب يدرسون دواوين الشعر العربي لامرىء القيس والنابغة، وفي البلاغة يدرسون أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني، وتاريخ الأدب العربي للزيات، وبعض المنتخبات من كتب المنفلوطي، وديوان أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهما. وتعتبر المدرسة العالية الحكومية في داكا التي أُسست قبل مائتي عام من أعرق وأكبر المعاهد ومراكز العلوم الإسلامية ومصدر الثقافة الإسلامية منذ إنشائها إلى الآن في جنوب شرق آسيا[1].

وبسبب تعلق السكان بالإسلام فقد تعلقوا باللغة العربية تعلقاً كبيراً وهو ما حفز العلماء والمهتمين بالكتابة والنشر والتأليف والتحقيق والبحث إلى التعمق في العلوم العربية والإسلامية وفنونها المختلفة. وتجد لهم شروحات وتعليقات على أمهات الكتب العربية في مجال الحديث النبوي الشريف، وتفاسير القرآن الكريم، والأدب

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٠.

العربي، والفقه الإسلامي والتاريخ الإسلامي باللغة العربية والأردية والفارسية. كما أنهم ألفوا بعض الكتب في الأدب العربي؛ في النثر والنظم وفي الإنشاء والقصص والرواية والأمثال والحكم، وقد اهتموا بالجرائد والصحف، وقد ظهرت بالعربية صحف مثل ـ اقرأ ـ ومجلة التوحيد ـ الثقافة ـ وكذلك لهم مساهمة كبيراً جداً في مجال ترجمة الكتب العربية والإسلامية وتأليف المعاجم العربية ثنائيات وثلاثيات اللغة[1].

اللغة العربية وانتشارها في إفريقية:

وقد أسهمت الدعوة الإسلامية أكبر الإسهام في إيصال اللغة العربية إلى مناطق عديدة من إفريقية. وقد اتخذت لذلك عدة طرق، منها طريق الدعاة والعلماء، ومنها أيضاً طريق الاختلاط بين التجار العرب وسكان المناطق الأصلية، أو طريق الاستيطان الذي جرى في منطقة الساحل الإفريقي الشرقي في زنجبار وغيرها.

وأثناء الفتح العربي لشمال إفريقية امتد النفوذ الإسلامي إلى السودان وأواسط إفريقية وغربها. وتكاتفت جهود كثيرة في سبيل إيصال الإسلام إلى الشعوب الافريقية.

ففي شرقها توطدت علاقات تجارية بين العمانيين وبين سكان المناطق على الساحل الافريقي الشرقي، وفي نهاية القرن السابع في عام ٦٦٥ هـ تمت أول هجرة عمانية على نطاق واسع إلى شرق إفريقية. فلقد قام بعض العمانيين تحت زعامة سعيد وسليمان من آل الجلندي بشق عصا الطاعة على الخليفة عبد الملك بن مروان وهاجروا إلى ماكان يعرف بومئذ ببلاد الزنج واستقروا في الساحل الشرقي الافريقي.

وفي أواخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر نجد مايدلل على ان الإسلام قد انتشر في بعض أجزاء الساحل الشرقي ولاسيما في المدن الساحلية ومن أهم المعالم الهامة لهذه الفترة جامع كزمكازي بجزيرة زنجبار ويرجع تاريخه إلى ٥٠٠ هجري.

وهناك نصوص عربية مازالت موجوجة بخط كوفي مقروء توضح تاريخ بناء

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٤.

الجامع وتجدر الإشارة هنا إلى بعض المخطوطات التاريخية في تمباتو التي تبعد عن بمبا بأميال معدودات تذكر أنه في عام ٦٠٠هـ وفد إلى جزيرة تمباتو شيخ عربي هو الشيخ يوسف بن علوي الذي جاء إلى تلك الجزيرة من منطقة البصرة. وينسب التراث المحلي إلى هذا لشيخ بناء مدينة ميكوتاني التي دمرت في وقت لاحق على يد مجموعة من الغزاة.

ومن الطبيعي أن اتساع النفوذ العربي العماني في الساحل الأفريقي الشرقي أدى إلى انتشار الإسلام بين السكان وكذلك إلى انتشار اللغة العربية.

وفي السودان الأوسط وصل الإسلام في القرن الثاني عشر وخاصة إلى منطقتي كانم وبرنو وقد وصل الإسلام إلى هذه المناطق بالطرق السلمية على أيدي التجار والفقهاء من شمال إفريقية وتفيد المصادر بأن أول سلطان اعتنق الإسلام في كانم هو حمى (محمد) في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وقد أنشأ في الفسطاط مدرسة ابن رشيق لتكون نزلاً لإيواء طلبة كانم في القاهرة. وتقول المصادر أن الإسلام وصل إلى كانم وبرنو عن طريق طرابس الغرب. واستقرت جاليات إسلامية منذ وقت مبكر في هذه المناطق، وكان من نتائج إسلام ملوك كانم أن أصبحت لديهم لغة كتابة هي اللغة العربية مما جعل المراحل الرئيسية لتاريخهم معروفة[1].

وبحلول القرن الخامس عشر ساد في برنو نظام التعليم الإسلامي وازداد عدد الطلبة منذ عهد السلطان علي جاجي. فأقيمت المدارس وهي مراكز للتعليم العالي اشتهرت من بينها مدرسة الشيخ أحمد فاطمي في القرن التاسع الهجري كما ظهرت في القرن السادس عشر مدرسة كالو مباردو. ومن أشهر علمائها العالم الطارقي الشيخ الوالي بن الجرمي الفارقي والشيخ وال ديدي الفلاّني وكان من أتباع الطريقة الصوفية القادرية وكان لمدارس برنو صلة بالجامع الأزهر الشريف وقصدها علماء

---

(١) د. أمين الطيبي. وصول الإسلام إلى كانم وبرنو ص ١٨٢. مجلة كلية الدعوة العدد ٤.

أتراك وأندلسيون وكانت تدرس فيها علوم الفقه والدراسات القرآنية[1].

ولعل الحديث عن دور الإسلام في نقل اللغة العربية إلى غرب ووسط إفريقية يتبع أكثر فأكثر لكثير من الأسباب والظروف.

ففي نيجيريا بدأ الإسلام يشق طريقه إلى المناطق المعروفة بهذا الاسم منذ القرن الثامن الافرنجي عن طريق التجار العرب المسلمين الذين يقدمن إليها من الشمال الأفريقي عبر الصحراء الكبرى. وازداد انتشار الإسلام وعظم أمر المسلمين في القرن الثالث عشر افرنجي تأثراً بنفوذ الموحدين والمرابطين الذين أقاموا دولتهم في المغرب العربي.

وقد عرفت البلاد هجرات عربية إسلامية متتالية عبر تاريخها الطويل فحمل المهاجرون معهم اللغة العربية والعلوم والفنون الحضارية مع الإسلام. فكانت البلاد طوال تلك الفترة محكومة وفقاً للشريعة الإسلامية حتى تعرضت للغزو الاستعماري الغربي في القرن الخامس عشر.

وقد انتشرت المدارس القرآنية في أرجاء البلاد حيث كان الطلبة يدرسون القرآن ويحفظونه وفي عام ١٩١٤هـ كان بالبلاد ٢٥ ألف مدرسة قرآنية بمختلف المناطق وكان الطلاب المتفوقون ينتقلون من مدرسة إلى أخرى ويتخرجون في نهاية الأمر علماء في الشريعة والفلسفة وغيرها[2].

أما في مالي فمع دخول الإسلام في القرن الثاني عشر دخلت اللغة العربية حتى أصبحت لغة الخطاب الرسمي في مجتمعات المسلمين حتى بداية الاحتلال الفرنسي، ومن الثابت أن جميع الوثائق العامة في الممالك الإسلامية بغرب إفريقية كانت تكتب بلغة القرآن الكريم، فضلاً عن أنها كانت لغة الحكومة والمراسلات الدولية والتجارة. وقد انتشرت المدارس التي تعلم اللغة العربية انتشاراً واسعاً في مالي، وطبقاً للإحصاءات الداخلية فإن مدن مالي تضم أكثر من ٢٠٠ مدرسة أهلية

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) مجلة رسالة الجهاد. العدد ٨٦.

تدرس اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ينتظم فيها أكثر من ٥٠ ألف طالب وطالبة.

ومن أشهر المدن المالية تمبكتو، فهي أساساً مدينة عربية أنشأها العرب القادمون من موريتانيا وحملوا معهم إليها الإسلام واللغة العربية. وقد انتشرت فيها المكتبات وراجت فيهاالكتب ونسخها، وتحولت إلى مايشبه مستودعاً ثقافياً للفكر الإسلامي في تلك الصحراء المترامية، وكان عدد العلماء والدارسين وحدهم يزيد على ٢٥٠٠٠ شخص.

ومازالت قبائل عدة في مالي تتحدث العربية، وكانت هي اللغة التي دخل بها الإسلام إلى قلوب أبناء مالي، فانتشرت مدارسها، ومع ذلك ظلت العربية منتشرة مزدهرة على الرغم من محاولات الاستعمار محاربة العربية والإسلام.

وفي السنغال تشعبت الروايات التاريخية كثيراً حول دخول الإسلام إليها. فقد ذهب المؤرخون إلى القول بأن الفولانيين هم الذين أدخلوا الإسلام، وهم شعب من الرعاة موطنه الأصلي في حوض السنغال. وقد دخل هؤلاء الفولانيون الإسلام على أيدي المرابطين منذ القرن الحادي عشر إفرنجي، وكسبوا إلى جانبهم التكارة أو شعب التكرور في موطنهم شمال حوض نهر غامبيا وهم بدو أيضاً.

وفي عام ٧٧٦م قام زعيم من التكرور بالثورة على سلطان الجلف وقتل ملكهم وقامت بفضله دولة إسلامية، قوية في كل حوض السنغال واستمرت هذه الدول قوية حتى دخل الاستعمارالفرنسي فقضى عليها[1].

وقد اقترن انتشار الإسلام بانتشار اللغة العربية لأن الضرورة كانت تقتضي على كل من يعتنق الإسلام أن يتعلم اللغة العربية على الأقل بالقدر الذي يساعده على أداء الفرائض والعبادات. ومن الثابت أن اللغة العربية كانت لسان حال الإمبراطوريات الإفريقية القديمة. حتى كانت العربية لغة الثقافة والإدارة معاً. كما كان استعمالها شائعاً بين الناس في السنغال حتى بدايات القرن العشرين.

---

(١) مجلة رسالة الجهاد العدد ٧٧ ـ ١٩٨٩ ف.

وظلت اللغة العربية راسخة في التربة السنغالية، وقد كتبت مجلة جون إفريقية في أحد مقالاتها أن دراسات أثبتت عام ١٩٦٠ أنه في كل قرية بالسنغال هناك أربعة أشخاص أو خمسة من بين خمسة وعشرين من التكرور الذين يعيشون قرب الحدود الموريتانية، يستطيعون قراءة العربية وكتابتها، وأن هناك آخرين من قبائل الدلفيين لايزالون يكتبون لغتهم بالحروف العربية.

واستطاع السنغاليون اختراق الحصار الفرنسي من خلال الكتاتيب والمساجد ومداس البيوت والبعثات التدريسية أو الدراسية إلى الدول العربية الصديقة.

ولعب الموريتانيون دوراً هاماً وكبيراً في تعزيز صمود اللغة العربية داخل السنغال، وذلك من خلال اختلاطهم بالسنغاليين والتزاوج معهم، ويؤلف الموريتانيون اليوم نسبة عالية من سكان السنغال، ويقدر عددهم بنصف مليون شخص. وظلوا الدعامة الأساسية التي قامت عليها حصون الدفاع عن اللغة العربية أمام هجمة الاستعمار الشرسة.. وقد ظل الموريتانيون عاكفين إلى جانب أهل السنغال على تحفيظ القرآن الكريم للأجيال المتتابعة، وتلقينهم بعضاً من علوم الفقه وقواعد اللغة العربية في الكتاتيب التي كثيراً ماتنعقد حلقاتها تحت ظلال الأشجار وفي الطرقات، وقد أنشأت بعض العائلات خصوصاً أسر الشيوخ وعلماء الدين فصولاً للغرض ذاته وحلقات داخل بيوتها[١].

من خلال مامرمعنا نرى أن دخول الإسلام إلى البلاد غير العربية حمل معه اللغة العربية كونها ترتبط بالشريعة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً؛ حيث لاتصح الصلاة إلا بآيات من القرآن الكريم، ولايفهم التشريع الإسلامي من فقه وتفسير وحديث وعلوم دينية إلا من خلال العودة للغة العربية، وقد رأينا أن دخول اللغة العربية إلى تلك المناطق لم يكن في كل الأحوال عن طريق الفاتحين العرب، إنما جاء في غالبيته عن طريق التجار والدعاة ورجال الصوفية، ولنا أن نرى حتى الآن آثارالعربية وحبها من قبل المسلمين كافة في كل أنحاء العالم الإسلامي وغيره من العوالم التي دخلها الإسلام ودخل قلوب

---

(١) المرجع السابع.

أبنائها فأخلصوا له وأحبوا لغة القرآن، اللغة العربية التي شرفها الله وأعزها.

وإن مايقوم به الأخ العقيد معمر القذافي من صلات مع إفريقية منذ سنوات ماضية وحتى اليوم لهو العمل الرائد لدعم المسلمين في هذه القارة الهامة، وله جزيل الشكرعلى الزيارات المتكررة، وإقامة الجامعات، وبناء المستشفيات، والمعاهد والكليات الدينية، وإيفاد البعثات التدريسية إلى الجامعات المحلية، والقوافل الصحية والمساعدات المادية فهو الطريق الأمثل لدعم ونشر الدعوة الإسلامية ونشرها، والمحافظة على اللغة العربية في تلك البلاد.

وإن استقبال الجماهيرية العظمى للعديد من الطلبة في جامعاتها من الدول الإفريقية وخاصة في كلية الدعوة الإسلامية في طرابلس ودمشق لتعليمهم اللغة العربية ودراسة العلوم الإسلامية لهو إحدى الخطط الهامة والرشيدة لاستمرار ودعم للإسلام في هذه الدول مثل تشاد ونيجيريا والنيجر ومالي وبوركينا فاسو وبنين وغيرها، حيث تم إنشاء كليات للدعوة الإسلامية وتعليم اللغة العربية في هذه البلاد.

وإن تعاون الدول العربية لاستقبال الطلبة الأفارقة في مصر وسوريا والجماهيرية العظمى والمغرب والسعودية يعتبر أكبر دعم لتوثيق العلاقات بين إفريقية والدول العربية والمساهمة في تمكين هؤلاء الطلبة من إيصال الدعوة الإسلامية واللغة العربية إلى بلادهم بشكل جيد.

كل هذا للوقوف أمام المخططات الصهيونية والإرساليات التبشيرية في هذه القارة التي تعمل بكل جهودها لقطع أواصر الصلة مع العالم العربي والإسلامي، ومنع انتشار اللغة العربية في هذه البلاد التي لها علاقة تاريخية مع الإسلام والمسلمين.